سكون العاصفة

للأستاذ محمود البدوى

كان خالد أفندى يتردد على مقهى « الحرية » فى مدينة المنصورة أصيل كل يوم . ومع أن المقهى يشرف على النيل ، ويقع فى أجل بقعة فى هذا البلد ؛ فإنه لم يحاول مطلقاً أن يملأ عينيه مما حوله من جمال وسحر ... فهو لم يشاهد منظر غروب الشمس فى النيل ، ولا طلوع القمر من وراء السحاب ، ولا الزوارق الشراعية وهى تسبح فى ظل النسق ... كما أنه لم يعبر جسر طلخا قط ، ويرى ما وراء الجسر من مناظر خلابة فى مدى السنين التسع التى قضاها فى المنصورة منذ أن نقل إليها كاتباً فى تفتيش الرى !

وكان يجلس على ناصية الطريق زمن الصيف ، فإذا جاء الشتاء انتقل مع الجالسين إلى الجزء الشتوى من المقهى على الرصيف الآخر من الطريق ، وألقى بنفسه فى مكان ضيق يعج بالخلق ويزهق الأنفاس . هذه المقاهى الغريبة المنتشرة فى طول البلاد وعرضها تضم خلقاً عجيباً من صعاليك الأرض ، ومحترفى النرد ، وأصحاب العقول الذهبية الذين يدخلون أنوفهم فى كل شىء على ظهر البسيطة ، وينتقدون أنظمة الاجتماع الإنسانى قاطبة ! ويشعرون بأنهم مخية نظم فاسدة لاسبيل إلى إصلاحها ! فما يعوزهم هو شىء خارج عن نطاق البشرية وحدودها ! على أن خالد أفندى كان يختلف عن هؤلاء جميعاً ، فهو رجل قد جاوز بسنه عمر الشباب ، وحاد بتفكيره عن تفكير المخبولين ! ... بيد أنه كان يتفق معهم فى الحيرة والقلق ، والشعور المطلق بالنقص أبداً ، ولهذا ظلت حياته تسير على منوال واحد ممل معذب ... وكان قد أدرك الجيل الذى يتزوج فيه الشبان قبل الأوان ، فتزوج معهم وأنجب ، وكان زواجه من فتاة طيبة من أسرة كريمة ، والأسر الكريمة كثيرة الود ، فالزوجة عند عماتها وخالاتها ، وخالات عماتها وعمات خالاتها ! كما أنهم محط الرحل فى المدينة لكل من يشرف المدينة من الأهل والصحب . ولهذا فر خالد أفندى من المنزل إلى المقهى ، وقعد على حافة الطريق يرقب الرائحات والغاديات بين عطشي ...

ولما امتد لهب الحرب ، وكثر عدد المهاجرين إلى الشرق ، اكتظت المنصورة بالخلق ، وازدحم منزل خالد أفندى بأفراد أسرته من المدن المعرضة لشر الغارات . فلما مضت الأيام على غير حادث ، وقفت حركة الهجرة ، وسئم المهاجرون تكاليف العيش الجديدة ورجعوا إلى بلادهم بالتدريج ، ورحل ضيوف خالد أفندى ورحلت معهم زوجته ؛ فقد رافقت أختها إلى القاهرة . وهكذا أصبح خالد أفندى وحيداً فى المنصورة ، أو أغرب إلى أجل ! وتنفس الصعداء ، وشعر بالحرية المطلقة فى غدوه ورواحه ، وراح يحن إلى أيام شبابه ولهوه

وكانت تمر أمامه ، بعد غروب كل شمس ، فتاة رائعة الحسن جذابة الملامح ، من هؤلاء اللواتى تدفعهن الفاقة إلى العمل . كانت تبيع الحلوى ، وتمر على الجالسين فى المقهى ضاحكة مازحة . وكانت تخص خالد افندى ببعض وقتها ومزاحها ، لأنه رجل وقور حسن السمعة ! وكان يمازحها ويتلطف معها فى الحديث . ثم يشيعها بنظراته النهمة . وكان جسمها أكبر من سنها بارز المفاتن رائع التكوين . وفى عينيها بريق وإغراء قل أن يجتمعا فى عينى امرأة . وكان خالد افندى يدرك هذه المحاسن كلها ولكنه كان يرد نفسه عنها تورعاً . على أنها لما مرت أمامه فى ذلك اليوم تثنى وتميل بجسمها وعلى شفتيها الرقيقتين ابتسامة ، وفى عينيها ذلك البريق الأخاذ استوقفها وابتاع منها بعض الحلوى ، وهو يضاحكها ويداعبها . ثم همس فى أذنها كلاماً فتورد وجه الفتاة ، وغضت رأسها . ثم مضت عنه ، وهى تهز رأسها ضاحكة وغابت فى جوف الظلام

وظل ساكناً فى مقعده لحظات . وهو ينفض المكان بعينيه ويرقب ! ثم اندفع فى الطريق الذى سارت فيه ، وقد زاده تمنع الفتاة حماسة وثورة . وأوسع الجمال لخطاه لما اجتاز المقاهى المتناثرة على حافة النهر حتى بدأ يلهث وتفض جسمه العرق . يا لله ... إنه يسير الآن فى الطريق الذى كان يتنزه فيه مع زوجه وأولاده مساء كل خميس حتى يبلغوا شجرة الدر ! لقد مات الآن فى نظره كل شىء وانبعثت الذكريات وأسدلت الستر على الماضى كله بخيره وشره . وأصبح لا يرى الآن تحت تأثير العاصفة التى ألهبت جسمه وأشعلت النار فى كيانه ، غير نساء عاريات سابحات فى النهر يتضاحكن ويهتفن به !

وبصر بها وهى تجتاز ميداناً صغيراً على رأس الطريق ينعطف إلى المدينة ، فجمع حواسه فى باصرته ، وانطلق فى أثرها

* * *

ومضى معها تحت ستار الظلام إلى البيت ، ودارت ببصرها فى جوانب القاعة فى تهيب وخجل . ثم جلسا للعشاء ، فأرغمها على الشراب ، فزال عنها حياؤها بالتدريج ، وتفتحت نفسها ، فانطلقت تغنى وتتبختر فى أرض الغرفة كالطاووس الجميل

ولبثا بعد ذلك الورق وتكدست أمامها أكداس القروش ! فرمقته بعينيها وسألته وهى سكرى : « هل تعطينى كل هذه النقود حقاً ؟ » فضحك وطمأنها

وظهر عليها التعب وبدأت تتثاءب . ورف لون وجهها من فعل الخمر ، وانفرجت شفتاها ، واحمرت عيناها ، وثقلت أهدابها وتفككت أوصال جسمها . فارتمت على أريكة بالقرب من المائدة وظلت تحادثه من حين إلى حين ، وتنظر إليه بعينيها الناعستين ، حتى أحست بلين الفراش فنامت ...

وبقى فى مكانه يحتسى القهوة ويدخن ، وعيناه سابحتان فى قرار الكأس . ثم رفع بصره إليها ، وهى نائمة حالة ، وقد تهدل شعرها ، وتوردت وجناتها ، وظهرت على وجهها كله آيات الطفولة البريئة ، وانمحت تكاليف العيش ومظاهر الصنعة من جسمها ونفسها ... فأشرق روحها وبدت على فطرتها ... وبان لون جسمها فى بياض الثلج ونعومة الحرير ، وكانت إحدى ذراعيها تحت رأسها والأخرى عند خصرها ... فتحرك الجسم قليلاً وارتفعت الذراع حتى جاوزت العنق ، وغاصت الأنامل الرقيقة فى الخد المورد ، وانحسر الثوب عن الساق ، وانزاح الشعر عن الجبين ، واهتزت الشفتان قليلاً ، وتحرك الجسم حركة من برد الصحو ؛ على أن الأهداب بقيت مطبقة ، والأجفان مسبلة ، والنفس هادئاً حالماً

ونظر إلى هذه الصورة الرائعة وهو سادر ساهم ، فنهض عن مقعده ووقف أمام النافذة المغلقة ، وفتح مصراعها ، وصرّ هواء الصيف المنعش على وجهه وأشرف على الليل ، وأطل على الوادى الصامت . ورأى لأول مرة فى حياته محاسن الطبيعة ، وبدائع ما أبدع الله وصور ، واعتمد بجسمه على النافذة وبصره يخترق حجب الليل ويعبر النيل والجسر وما وراء الجسر ، حيث تتجلى الطبيعة فى أروع صورها ، وسبحت عيناه فى الظلام ، واستغرق فى تأملاته وصرت فى ذهنه صور كثيرة واضحة وغامضة ... الحرب ... والغارات ... والريف ... والقرية ... وزوجه ... وأولاده ... وشعر بطراوة الهواء ولينه وهو يصافح وجهه ، وبجسمه يعود إلى حالته الطبيعية ، ورأسه يصفو من فعل الخمر ، فانثنى من النافذة ، وانطلق يتمشى فى أرض الغرفة ، وعينه على الفتاة النائمة ووقف أمامها لحظة ... ثم انحنى عليها ، وحملها على ذراعيه كطفل صغير ، ومشى بها إلى مضجعه ، وأنجمها على السرير بحنان ورفق ، وأسدل على جسمها ملاءة خفيفة ، وأبقى وجهها الناضر عارياً ، وانسحب من الغرفة ساتراً على أطراف أصابعه ! !

ونام على أريكة فى الردهة نوماً عميقاً هادئاً تشوبه أنذ الأحلام

محمود البدوى

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)